المحاضرة الخامسة: الإستعمار وتغيير البنى الثقافية في الجزائر

عمل الإستعمار الفرنسي منذ احتلاله للجزائر سنة 1830على محاربة مقومات الهوية الوطنية ، ومحاولة فرض مشروعه الثقافي من خلال:

أولا- طمس المعالم الحضارية وفرنسة المحيط:

قامت السياسة الثقافية الإستعمارية على محاربة الشخصية الجزائرية وهويتها الوطنية، وذلك بإحلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية وجعلها اللغة الرسمية، ومحاربة مظاهر التدين بتحويل المساجد والمؤسسات الدينية إلى كنائس ومستشفيات، والإستيلاء على الأوقاف ووضعها تحت تصرف أملاك الدولة.

وغَيّرت أسماء الشوارع بإعطائها أسماء رومانية وفرنسية مثل: شارع شارل الخامس، شارع دوكين،وتحويل معالم المدن مثل مدينة الجزائر التي تعرضت لتهديم المنازل والأسواق القديمة وتحويل المنازل والفيلات إلى أماكن عمومية وثكنات للجيش وتهديم محلات بيع الكتب المعروفة بالقيصرية، وتراجعت الحالة العلمية بسبب وقائع الحرب وأهوال الإحتلال وهجرة العلماء وتشتيت القبائل، وأصبح الناس يتعلمون في بيوتهم سرا نظرا للسياسة القمعية المتبعة.

كما كلفت البعثات الإستكشافية للبحث عن الآثار الرومانية باعتقادهم أنّ المدينة الجديدة قائمة على أنقاض مدينة القديمة، وتحولت معالم مدينة الجزائر نحو الطابع الغربي؛ إضافة إلى التحكم في السجل المدني الذي أنشئ سنة 1882 والذي تضمن ألقابا جديدة أطلقت على الجزائريين، وتزوير تاريخ الجزائر في محاولة لإبراز عظمة فرنسا بإتلاف العديد من الوثائق والسجلات والإستيلاء على المخطوطات، وتأسيس لجنة علمية مختصة في شؤون المستعمرات والبحث عن الآثار المسيحية في البنايات الإسلامية. والتعرف على خصوصيات المجتمع الجزائري ودراسة لغاته ولهجاته وعاداته وتقاليده وممارسته الدينية من عقيدة وتصوف إضافة إلى الأنساب القبلية وتركيبة السكان.والتدخل في الشؤون الإسلامية بتحديد الأعياد الدينية والإشراف على تنظيم شؤون الحج والتشديد على الأئمة والمفتين، وفرض رقابة على تنقلاتهم ونشاطهم، وللتعرف على خصوصيات الثقافة الجزائرية قامت الجمعيات العلمية الفرنسية بجمع النصوص والوثائق وترجمتها وتنظيم أبحاث ضمن مشاريع لاكتشاف الجزائر، ومن هذه الأعمال مشروع اكتشاف الجزائر العلمي ومشروع الإحتفال المئوي بالإحتلال،

ثانيا - سياسة التنصير ومحاربة الإسلام:

ارتبط الإحتلال الفرنسي بالتعصب الديني فاعتبر الفرنسيون سقوط مدينة الجزائر انتصارا بتراجع الدين الإسلامي وعودة المسيحية، وفي هذا الجانب قامت الإدارة الإستعمارية باحتفالات دينية وعلّق الفرنسيون الصليب على مآذن المساجد، وباشروا الحفر عن الآثار المسيحية تحت المسجد الأعظم على اعتبار أنّه مبني على هيكل ديني أو كنسية مسيحية قديمة ترجع إلى الرومان، كما عمل الإستعمار على نشر المسيحية عن طريق التعليم، وتَدعم النشاط التنصيري بتأسيس أسقفية الجزائر سنة 1838 ومباركتها من طرف

الفاتيكان للإشراف على العملية التنصيرية؛ وتولّى إدراتها الأسقف **دوبوش**، واهتمت بالعمل التنصيري إلى جانب التعليم كأحد الوسائل التعريفية بالمسيحية، على اعتبار أنه يمثل رسالة مقدسة واستمرارا للحروب الصليبية.

ومن بين الوسائل التي استخدمها المبشرون تعليم الأطفال في المدارس الإستعمارية مع الرعاية الإجتماعية التي تخص الفقراء؛ إضافة إلى الإهتمام بتكوين المعلمين للتعليم التبشيري بهدف محاربة الدين الإسلامي وإحلال مكانه المسيحية وتقريبها من قلوب المتعلمين، وتحويل المساجد إلى كنائس وإقامة القداسات مثل جامع القائد علي الذي أعطي للجمعية التبشيرية المعروفة باسم (أخوات القديس يوسف).

ويبرز الإهتمام الإستعماري التعليمي والديني في نشاط المدارس التي أشرف عليها رجال الدين أمثال الكادينال لافيجري 1825-1871 الذي اتبع سياسة التوغل داخل المجتمع الجزائري باتباع وسائل ترغيبية لاستقطاب المسلمين للمسيحية بشكل جماعي؛ ومن سار معه من المبشرين في مناطق مختلفة من الوطن مثل: القبائل الأوراس وداي ميزاب، وتحت إشراف جمعيات اهتمت بتدريس التعليم التبشيري للأهالي مثل جمعية الآباء اليسوعيون، والآباء البيض مبشرو مليدماي البروتستانتية، والجمعية الدينية للقديس أوغسطين سنة1844، ومن المدارس التبشيرية التي تم تأسيسها مدرسة **"سان لويس "** سنة1846 من طرف الأب بوغارد، ونشطت هذه الهيئات في مجال التعليمي الأهلي ففي منطقة القبائل بلغ عدد المدارس بها21 مدرسة في حدود سنة1901، وقد استخدم المنصّرون وسائل إغرائية للأطفال مثل توزيع الحلوى وتقديم النقود مع تعريفهم بمفاهيم الدين المسيحي، متبعين سياسة اللين في التقرّب من المتعلمين والمعاملة المناسبة معهم وتهيئتهم لتقبل الفكر المسيحي. وتلقينهم بعض العلوم النظرية إلى جانب اللغة الفرنسية، وتوظيف نصوص من الإنجيل في دروس تقدم للتلاميذ وتدريس مادة الديانة المسيحية ضمن المشترك بين الديانة الإسلامية والمسيحية، وإحياء كتابات القديس أوغسطين، والقديس سبريان،واختراع الحروف التي تكتب بها القواميس لبيان المعاني ودراسة آثار الكنائس القديمة بإفريقيا في إطار تنصير الدول الإفريقية.

هذه السياسة الثقافية اندرجت ضمن الغزو الفكري الذي سعت الإدارة الإستعمارية بهدف القضاء على الوجود العربي بعد دمجه ضمن الكيان الأوروبي؛ وتكوين مثقفين فرنسيين بهدف تسهيل عملية تنفيذ المخططات الإستعمارية؛ لكن المقاومة الثقافية وقفت أمام هذه المشاريع،